مرافعة في حق العميد في خمسينية الاستقلال

تصحيح خطأ تاريخي حول موقف طه حسين من ثورتنا التحريرية

حسن بشاني - جامعة الجزائر 2

Résumé

Cet essai comporte deux aspects :un aspect théorique qui s'efforce de développer les arguments qui soutiennent sa thèse par le texte et le document historique constitutif de son corps même , et un autre aspect qui se propose de corriger une erreur historique qui s'est propagée chez nous, et qui concerne la position du doyen de la littérature arabe contemporaine relative à notre révolution. Aussi, cette rectification a pris la forme d'une plaidoirie dans le but de réhabiliter Taha Hussein et lui rendre hommage en même temps, à l'occasion du cinquantième anniversaire de l'indépendance de l'Algérie.

Dans la première partie de ce travail, j'ai défendu la conception de l'indépendance chez Taha Hussein, en démontrant que sa conception n'est pas basée sur une vision politique simpliste de la dialectique de la colonisation et de l'indépendance, mais sur une vision philosophique de l'histoire, et une conception précise du rôle de l'être humain en tant qu'artisan de l'histoire qui façonne sa destinée et définit sa responsabilité dans le cours de l'histoire. Il s'agit là d'une vision qui pose que la liberté ne comporte pas en elle-même son immunité, mais a besoin toujours d'un acteur qui l'immunise et la défend. Aussi, l'effort le plus important que nous devons faire, peuples et états, pour garantir la liberté, n'est pas celui que nous devons dépenser pour la conquérir, mais celui que nous dépenserons pour la conserver après l'avoir conquise ; c'est là une vision qui développe une conception différente de la colonisation et de l'indépendance en même temps.

Dans la deuxième partie nous avons abordé un autre aspect en rectifiant une erreur historique concernant la position de Taha Hussein à propos d'une cause précise : notre révolution libératrice. Nous avons montré, document historique à l'appui, la position de Taha Hussein exposée dans trois textes inoubliables dans lesquels il défend le droit légitime, historique et humain du peuple algérien, de lutter pour récupérer son indépendance et vivre dans le cadre de la liberté et la dignité humaine.

" فمن أين لنا العلم بأخبار الأمم لولا خوالد آثار القلم " . أبو الريحان البيروني.

يتعذر على من لم يطّلِع على كتاب عميد أدباء العرب المعاصرين " مستقبل الثقافة في مصر" أن يفهم بعمق موقفه السياسي والأخلاقي من الاستعمار عموما، ومن مستقبل الشعوب العربية المستعمَرة الحضاري بشكل خاص. ففي هذا الكتاب - الوثيقة - وفي فصله الأول، تحديدا، موقف من الاستعمار دال في الزمان؛ 1938 - أي بعد معاهدة لندن 1936 الخاصة باستقلال مصر بسنتين - وتصور لمستقبل حضاري لهذه الشعوب دال في المكان والوجهة؛ رسم رؤية مستقبلية حضارية مؤسَّسة عقلا هادفة فكرا واضحة مقصدا - روح الحضارة الأوروبية الحديثة في بعدها الإنساني - فليست تخفى على أي قارئ لهذا الكتاب مجاهرة طه حسين شعبه المصري، والشعوب العربية المستعمَرة كلها، بأن الاستقلال لا يعني لها

شيئا - تاريخا وحضارة - إن لم تَعده شرطا تاريخيا، وشرطا تاريخيا فقط ، لغاية أسمى منه؛ وأن تتعاطى معه بوصفه فرصة تاريخية، وفرصة تاريخية فحسب أيضا، تنهض فيها " ...بواجبات خطيرة وتبعات ثقال " (1)على حد قوله.

وليس النهوض بهذه الواجبات الخطيرة والتبعات الثقال، في رأي ابن الأزهر المستنير، إلا رفع التحدي التاريخي الذي فرضته هذه الحضارة الأوروبية الحديثة، بعلومها وثقافتها على بقية العالم. فنحن نعيش كما يقول: " في عصر من أخص ما يوصف به أن الحرية والاستقلال فيه ليسا غاية تقصد إليها الشعوب وتسعى لها الأمم، وإنما هي وسيلة إلى أغراض أرقي منها وأبقى، وأشمل فائدة وأعم نفعا..."؛ ذلك أن شعوبا كثيرة من الناس في أقطار كثيرة من الأرض كانت، كما يقول: "... تعيش حرة مستقلة، فلم تغن عنها الحرية شيئا ولم يجد عليها الاستقلال نفعا، ولم تعصمها الحرية والاستقلال من أن تعتدي عليها شعوب أخرى تستمتع بالحرية والاستقلال ولكنها لا تكتفي بها ولا تراهما غايتها القصوى، وإنما تضيف إليها شيئا آخر أو أشياء أخرى." (2) ...تضيف إليها الحضارة التي تقوم على الثقافة والعلم، و **القوة** التي تنشأ عن الثقافة والعلم ، و **الثروة** التي تنتجها الثقافة والعلم. ولو لا أن مصر - (وغيرها من شعوب الأرض) - قصَّرت، طائعة أو كارهة، في ذات الثقافة والعلم لما فقدت حريتها، ولما أضاعت استقلالها، ولما احتاجت إلى هذا **الجهاد العنيف الشريف** لتسترد الحرية وتستعيد الاستقلال .

لقد تعمدت الإطالة على القارئ بهذه المقدمة، والإثقال عليه بهذه النصوص؛ تفاديا لأي تأويل لآراء طه حسين السياسية، وتجنبا لأية قراءة مغرضة لموقفه من الاستعمار، خارج إطار منطق تفكيره وفي منأى عن سياق دلالات فكره السياسي التاريخية، وقناعاته النظرية، الفلسفية والحضارية.

فليس في ما تقدم من أقوال طه حسين، المدونة، في الاستعمار وفي الحرية والاستقلال - وفي غيرها من أقواله الكثيرة في هذا الموضوع، كما سأبين لاحقا - ما يجيز لكاتب أو يمنح الحق لأحد - محللا سياسيا كان أو أديبا ناقدا أو مؤرخا للأفكار - لإضفاء معنى سلبي على موقفه من الاستعمار أو تسجيل أي تغاض، لا أخلاقي أو غير إنساني، منه عن إدانته. والحقيقة، في ما أرى، أن مرد مثل هذه التأويلات والافتراءات في حق العميد - وما أكثرها عندنا - خلط جهل أو تجاهل واضح، عند أصحابها، في التمييز بين بعدين مختلفين؛ بل قل للدقة بين بعدين متناقضين، فرضت بهما أوروبا نفسها، منذ مطلع القرن التاسع عشر، على معظم الشعوب العربية، وعلى بعض غيرها أيضا من شعوب المعمورة؛ أوروبا صانعة الحضارة الإنسانية الحديثة وفاتحة أمل البشرية المتاح بهذه الحضارة من جهة؛ وأوروبا القوة الاستعمارية الهدامة والغطرسة البشرية المشؤومة والاستيطان اللاإنساني وجرمه المقيت من جهة أخرى؛ أي بين أوروبا الحضارة، مستقبل العرب المنشود - ومستقبل أمثالهم من الشعوب أيضا - وبين أوروبا الاستعمار؛ أوروبا حاضرهم اللاإنساني - وحاضر أمثالهم كذلك - المرفوض والمدان سياسيا وأخلاقيا وإنسانيا.

إشكالية تاريخية، أو إن شئت القول: مفارقة تاريخية، فرضت نفسها على طه حسين وأبناء جيله وعلى من سبقهم أيضا من المثقفين العرب، منذ أن اكتشفوا أوروبا الحديثة - أو كشفت هي عن نفسها لهم، لا فرق في ذلك - كان عليهم التعاطي معها بعقل وبصيرة تمييز دقيقة بين هذين البعدين المتناقضين، المتحايثين في الزمان والمكان، وبقوة إدراك عميق لمفارقتهما التاريخية. والحق يقال أن معقولية هذا الإدراك التاريخية وهذه البصيرة في التمييز بين الأربتين قد فرضهما حصول وعي وإدراك مبكرين، نسبيا، لدى المثقف العربي الحديث بوجود ضرب من ضروب الوحدة في التاريخ البشري، وببشائر وحدة مصير حضاري وإنساني لهذا التاريخ؛ وعي وإدراك صريحين في أفكار بعضهم مُبطَّنين في ثنايا أفكار بعضهم الآخر.

هذا ما نستبطنه، مثلا، في أفكار رفاعة الطهطاوي الذي قدم أول تصور لمستقبل مصر الحضاري، ولغيرها من بلاد الشرق، مبني على رؤية حضارية كونية للتاريخ، وأول دعوة عربية مدوّنَة، في القرن التاسع عشر، للاستفادة من قوانين أوروبا الوضعية وعلومها وتقنياتها ودساتيرها. ـ وللتذكير فإن هذه الرؤية الحضارية الكونية قد تبلورت في ذهن الطهطاوي وهو في باريس - 1827 - 1831؛ أي في الوقت الذي غزت فيه فرنسا بلادنا بالذات 1830؛ وهي الرؤية الحضارية التي كانت قد أرهصت له بها، قبل ذلك، دروس شيخه حسن العطار في الأزهر، المستقاة من صور يوميات عبد الرحمان الجبرتي، التي كان يقدمها لوجهاء قومه ومثقفيه، في الأزهر، عن همجية غزو نابليون بونابرت لمصر من جهة، وعن عجائب مبتكرات علمائه التقنية من جهة أخرى ـ. ولكن الظاهر أن الطهطاوي كان قد حسم الاختيار في ضرورة الفصل بين أوروبا الدائمة وأوروبا المؤقتة؛ أوروبا النافعة وأوروبا الضارة؛ أي الفصل بين أوروبا الحضارة وأوروبا الاستعمار. وهو الحسم نفسه الذي جهر به خير الدين التونسي، بزمن قليل بعده، في مواطنيه، بل وفي رعايا الدولة العثمانية قاطبة؛ مشيرا لهم، إشارة الناصح المدرك لتطورات التاريخ البشري المستقبلية وقواسمه الحضارية المشتركة العديدة، إلى أقوم المسالك المُفضية إلى أوروبا الدائمة؛ أوروبا النافعة علما وفكرا وتقنية وأنظمة حكم.(3)

وليست تخفى على نبيه، أيضا، رسالة المنوريْن اللبنانيين الكبيريْن فرح أنطون وشبلي الشميل في هذا الخصوص؛ فقد تطلب من أولهما استحضار فلسفة ابن رشد والتذكير بعقلانية أفكاره الفلسفية وإنسانيتها، والتنويه بدورها في نهضة أوروبا الحديثة نفسها؛ مؤكدا جهرا على كونية الحضارة الأوروبية وعلى مستقبل الشرق والغرب الحضاري الواحد. وهي القناعة ذاتها التي دفعت الطبيب المفكر شبلي الشميل إلى الاجتهاد، في غير تردد، لإقناع مواطني الشرق بأن قانون التطور البيولوجي وسننه يسري على كل ما هو كائن حي، وأن الإنسان ليس استثناء، على الإطلاق من هذا القانون؛ أي في صراعه من أجل البقاء؛ بل إن سنن هذا القانون تطال، إضافة إلى ذلك، حياته الاجتماعية والسياسية نفسها؛ فالبقاء فيها أيضا للأقوى والأصلح، وقتما كان وحيثما وجد؛ حاثا بذلك مواطني الشرق على الانخراط في مسار التطور التاريخي الذي تشهده أوروبا، المنتصرة تاريخيا، واستساغة مستجداته الحضارية. وفي هاتين الدعوتين تمييز جلي أيضا بين أوروبا الاستعمار ـ الضارة والزائلة ـ وأوربا الباقية النافعة، علما وفكرا وتقنية وأنظمة حكم.

ولا يجوز أن يُحرجَنا من يرى في اختيارنا هذه الشخصيات الفكرية المذكورة انحيازا مغرضا، ذلك أن مجدد الأزهر الحديث ومصلحه الأول، الشيخ محمد عبده ذاته، كانت له القناعة نفسها بضرورة هذا التمييز بين الأوروبتين وبمنافعه المستقبلية على الإسلام والمسلمين؛ وما موقفه المتأني، بل المتحفظ، من جدوى دعوة أحمد عرابي للإسراع في إعلان الحرب على المستعمر الانجليزي ـ قبل تجديد أذهان الشباب المصري وتنويرها بحقائق عصرها وتحضير الشعب للنهوض بنفسه، كما كان يرى معتزلي عصره ـ إلا تعبير ضمني عن تلك القناعة وذلك التمييز (4). ولسنا في حاجة أيضا للإلحاح وترديد مواقف رواد حركتنا الوطنية الثلاثة أنفسهم، على اختلاف مرجعياتهم الفكرية والسياسية؛ فما اتهم به محمد عبده، من قبل بعض هواة الفكر والسياسة، يكاد يكون الاتهام نفسه الموجه للإمام عبد الحميد بن باديس؛ مع اختلاف في بعض الحيثيات والأدوار التاريخية الخاصة، والمقارنة نفسها تكاد تتم أركانها، مع فارق الحيثيات والأدوار التاريخية أيضا، بين التهمة الموجهة زورا لطه حسين عن موقفه من الاستعمار والمستنتجة، بصورة فجة، من تبنيه الصريح لحضارة أوروبا وفكرها وعلومها وأفضالها الإنسانية، وبين التأويل المبسط لمفهوم الزعيم السياسي الليبرالي فرحات عباس لفكرة الاندماج ـ وهي بالمناسبة مناورة سياسية ليس غير ـ من جهة ورؤية الزعيم السياسي التونسي الحبيب بورقيبة المتبصرة بمستقبل تونس السياسي

الحر أفقا منظورا وحتمية تاريخية من جهة أخرى؛ وهو التأويل المبني خطأ أيضا على قناعتهما المبدئية، أيضا، بفضائل المدنية الأوروبية المستقبلية علينا؛ وهو استنتاج قائم أساسا على خلط فج كذلك بين إستراتيجية مقاربة هؤلاء الفكرية والأيديولوجية لأوربا وتكتيك ممارساتهم ونشاطهم السياسي المعادي للاستعمار؛ والقائمة في هذا الخصوص طويلة يتعذر حصرها في مقال. ولكن من المفيد التذكير هنا بأن هذه المقارنة قد تفطن لها أحد الباحثين التونسيين؛ مشيرا إلى ما كان يجمع طه حسين والحبيب بورقيبة من محبة، رادا ذلك إلى قناعتهما المشتركة بأن ما يواجهنا أكثر من رهانات، شعوبا ودولا ومجتمعات، هي رهانات ما بعد مرحلة الاستعمار. ولن أجانب الحقيقة إذا قلت أنا بدوري: إنها القناعة ذاتها التي كانت تختلج ذهن الزعيم فرحات عباس. وما يزيدنا قناعة بذلك هو إيمان ثلاثتهم العميق بأولوية التوعية السياسية والإعداد المعنوي للجيل القادر على رفع هذا التحدي، سياسيا وعلميا وتقنيا . وقد عبر كل واحد منهم بطريقته الخاصة عن هذه القناعة، وكان أبرز تعبير وأبلغه عن هذه القناعة، كما أشرنا في مستهل هذا المقال، تعبير طه حسين الصريح بأن الاستقلال لا يعني لنا شيئا، تاريخا وحضارة، إن لم نعده شرطا تاريخيا لغاية أسمى منه هي بناء مستقبلنا والمحافظة عليه بالعلم والفكر والثقافة وبكل مسببات قوة العصر الذي نحيا فيه.

لم يكن إذن استعراضنا لمواقف هذه الشخصيات الفكرية مقصودا لذاته، بل تحديدا لإطار تاريخي ولسياق حجاجي غايته المرافعة في حق طه حسين؛ تصحيحا لفكرة راجت، بين بعض كتابنا، عن موقفه من الاستعمار عموما، وعن " تجاهله " لثورتنا التحريرية تحديدا. وهو الأمر الذي اضطرني للتذكير بهذه الآراء والبسط، بعض الشيء، في مواقف أصحابها بغية القول: إن موقف طه حسين الداعي لحضارة أوروبا وفكرها وعلومها هو موقف كل مثقفي جيله المستنيرين، المتأثرين بثقافة أوروبا وفكرها الليبرالي الحديث وموقف من سبقوهم ومن أعقبوهم من نفس المدرسة الفكرية الليبرالية، و من أوساط الاتجاه الإصلاحي الديني التنويري الحديث المعاصر لهم أيضا؛ موقف الرؤية المميزة، كما أسلفنا الذكر، بين أوروبا الاستعمارية الزائلة وأوروبا الحضارية الباقية والنافعة؛ علما و فكرا وتقنية وأنظمة حكم. وأجدني هنا في غير حاجة لتبرير صدق هذه الرؤية ودقة استشراف أصحابها لمستقبلنا وواقعيته، فواقعنا وواقع العرب التاريخي المعيش عموما كفيل، بحقائقه المرة؛ علما وفكرا وتقنية وأنظمة حكم، بالإنابة عني في ذلك؛ ثم إن المقام هنا، إضافة إلى ذلك، ليس مقام الخوض في هذه المسألة، وسأكتفي بالقول: إن طه حسين وأبناء جيله من أحرار الفكر والتفكير كانوا، بلا ريب، على إدراك عميق بأن الاستعمار، قديمه وحديثه، ظاهرة تاريخية زائلة بحكم منطق التاريخ البشري وقوانينه نفسها، وهو من ثم ظاهرة مدانة، مبدئيا بالنسبة لهم، إنسانيا وتاريخيا؛ ولا تتطلب من مفكر إنسانوي حرّ التفكير، من قامة طه حسين ومن أبناء جيله، من أحرار العقل و التفكير، اهتماما مبدئيا بما هو عابر في التاريخ بقدر ما يملي عليهم الانشغال، أولا وأخيرا، بما ينفع الناس دوما ويمكث في الأرض؛ أي بما ينبغي على الناس من أبناء جلدتهم النهوض به إزاء أنفسهم ووطنهم وهم أحرار، وفي وضعهم التاريخي الطبيعي؛ أي وهم مستقلون. وهذا هو، تدقيقا، مغزى متن كتاب طه حسين المشار إليه " مستقبل الثقافة في مصر". وليس إصدار بيانات إدانة للاستعمار، أو كتابات توعية سياسية تؤكد أحقية الشعوب المستعمرة في الاستقلال؛ فهذه المهام من أولويات زعماء الأحزاب والمناضلين السياسيين وممثلي الشعوب الرسميين وإعلاميوه وقواه الناشطة الخ. وما أهمية إسهامات مثل هذه الشخصيات الفكرية والرمزية الكبيرة بالكتابة، في هذا الخصوص، إلا أهمية معنوية، أخلاقية وأدبية، لا أكثر.

ولهذا أجدني مضطرا للتذكير، مرة أخرى في هذا السياق، بمبدأ طه حسين الأول و **قيمة** القيم عنده التي كان يستمد منها مواقفه الحاسمة في القضايا الفكرية والسياسية الكبرى، ويسعى دون هوادة لإقناع أبناء جيله بها وبفضيلتها الإنسانية الكبرى، ألا وهي " **الحرية** " بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى إنساني واجتماعي وسياسي. وقد سجل لنا الأديب الكبير نجيب محفوظ، في هذا الخصوص، خالدة من خوالد آثار قلمه عن مآثر أستاذه طه حسين في ترسيخ هذه القيمة في أذهان جيلهم وعقله قائلا : " وقد ارتبط طه حسين الأديب في أذهاننا " **بالحرية** ....."(5). وهي القيمة التي يشهد له بالدفاع عنها والجهر بها، حين يجب الجهر بها، الجميع؛ ويعترف له بجرأته في المطالبة بها، حين تجب المطالبة بها، الجميع أيضا؛ فطه حسين، بشهادة الخصم والصديق، ليس متصنعا، في قضية **الحرية** وفي غيرها من قضايا الإنسان الأولى وكرامته ولا مجاملا فيها، فهو لا يستطيع أن يتصنع أو يجامل في مثل هذه القضايا، مثله في ذلك مثل صديقه وخصمه الأدبي والسياسي عباس محمود العقاد ، الذي قال فيه طه حسين نفسه: إنه لا يستطيع التصنع والمجاملة في مواقفه الفكرية والسياسية ولو حاول ذلك لفسدت شخصيته(6)؛ وشخصية طه حسين، في هذا الخصوص، مثل شخصية العقاد " فوق الفساد " ، كما قال، وبمنآه.

لقد تعمدت استحضار هاتين الشهادتين من عملاقي الأدب العربي المعاصر تذكيرا، وتأكيدا في الوقت نفسه، بإحدى خصائص شخصية طه حسين وجرأته في دفاعه عن **حرية** الإنسان وحق الشعوب فيها، حينما يتطلب الأمر منه ذلك؛ وهي الشهادة التي لخصها الكاتب والسياسي المصري محمد حسن الزيات في كتابه " ما بعد الأيام " في الموقف الجريء الذي سجله، فعلا، ضرير مصر سنة 1946 حينما عاتب شارل دوغول ذاته عن كيله بمكيالين في مطلب هذا الحق الإنساني؛ منبها إياه في القاهرة، بلا تصنع ولا مجاملة، بالمفارقة التي تتعاطى بها فرنسا مع مفهوم **الحرية** وحق الشعوب فيها؛ فهي تطلب الحرية لشعبها وتحثه على التضحية من أجلها، في الوقت الذي ترفض مطالبة الشعوب الأخرى الخاضعة لها حقها فيها؛ فخاطبه، حسب ما أورد الزيات، دائما، قائلا ما نصه : " لا يمكن أن تطالب فرنسا باستقلالها وبحريتها، وهي تنكر على الشعوب الواقعة تحت سلطانها هذا الاستقلال وهذه الحرية "(7) .

ولأن المسألة مسألة تصحيح خطأ تاريخي حول موقف طه حسين من ثورتنا التحريرية؛ أي حول موقفه من الاستعمار في آخر الأمر، فإن الأمر يتعدى، في اعتقادي، مبدئيا مسألة رد اعتبار، في هذه المناسبة، لرمز من رموز الثقافة والفكر العربي الكبار، أو إسداء الجميل له على موقفه المشرف من ثورتنا فحسب - على ضرورة ذلك بالنسبة إلينا نحن الجزائريين ووجوبه الأخلاقي تجاهه - بل لتصحيح أخطاء تاريخية أخرى ألصقت به جورا أيضا، من قبل خصومه السياسيين ومناوئيه الأيديولوجيين، في مسألة الاستعمار وموقفه منه مشرقا ومغربا. ولهذا فقد آثرت أن أعزز مرافعتي هذه في حقه بالتذكير بمواقف أخرى سجلت له خوالد القلم الجهر بها في عديد المواقف، قبل ثورتنا التحريرية وأثناءها وبعدها أيضا، دفاعا عن حرية شعوب المغرب والمشرق على السواء، وإدانة جريئة للاستعمار بجميع أشكاله ومبرراته. وقد أعفانا في هذا الأمر الأديب الناقد جهاد فاضل من جهد جمع بعض هذه المواقف التي رد بها على خصومه وانتقاداتهم الجائرة؛ حيث خصنا بفصل كامل من كتابه " أدباء عرب معاصرون" (8)، حصر فيه أهم هذه الاتهامات وفي مقدمتها " موقفه الغامض "، بل المهادن، كما يزعم بعضهم للصهيونية و " موقفه المشبوه "، كما يدعي بعضهم الآخر، من سعي شعوب شمال إفريقيا، كما كانت تسمى، إلى الاستقلال عن فرنسا. فقد أول خصوم طه حسين، وفي طليعتهم أنور الجندي وعبد الرزاق السنهوري، قبوله رئاسة تحرير مجلة " الكاتب المصري " عام 1945، الممولة من شركة تملكها عائلة آل هراري اليهودية المصرية،(9) تأويلا يأباه تكوين طه حسين الفكري ومفهومه للإنسان. فقد رأوا في ذلك القبول

ترحيبا ضمنيا منه بالتعاون مع الصهيونية التي كانت منظماتها تنشط نشاطا غير عاديّ في مصر، آنذاك، تمهيدا لتأسيس الدولة الصهيونية في فلسطين. وهي تهمة صبيانية يضيق بها الاحتمال، رد عليها مريدوه باستهجان، مؤكدين أن فكر طه حسين الإنساني وإيمانه بانتمائه الثقافي والحضاري كفيلان بالنأي به عن أية أيديولوجية عنصرية أو معتقد عرقي ذي منطلق إرهابي مثل الصهيونية؛ فثقافة طه حسين الفلسفية والتاريخية لا تخطئ التمييز بين الإثنولوجيا والدين وبين الأيديولوجيا والسياسة وبين الثقافة والتاريخ.

وفعلا فلنا من القرائن ما يؤكد هذا الدفاع عن العميد ويزكيه، فقد دون لنا الأديب الناقد علي شلش خالدة من خوالد طه حسين، في افتتاحية أحد أعداد مجلة " **الكاتب المصري** " سنة 1946 مقالا معنونا بـ (رحلة إلى بيروت)؛ تقول قصة المقال إنه كان ذاهبا إلى بيروت بالبحر فجنحت السفينة التي كانت تقلّه إلى مدينة حيفا لكي تُنزل بعض المسافرين اليهود المهاجرين من أوروبا إلى فلسطين فكتب عن هذه الحادثة يقول: " إن موضع هؤلاء العجزة والنساء والأطفال الذين دفع بهم دفعا إلى السفينة لكي تنقلهم بأمر الحلفاء **إلى أرض لا يملكونها** لأناس لا يدركون مايفعلون ، هو مأساة " (10). وفي إجابة له عن سؤال وجهته إليه مجلة (**الاثنين**، الصادرة عن دار الهلال) قبل صدور مجلة " **الكاتب المصري** "، موضوع التهمة، بأيام معدودة؛ مرددة عليه دوافع قبوله رئاسة تحرير هذه المجلة التي تملكها عائلة آل هراري. رد طه حسين بإجابة حاسمة متسائلا: " كيف توجهون إلي هذا السؤال وأنتم تعرفونني جيدا ؟ تعرفون أنني حريص على التراث العربي **وعلى القضية العربية** وعلى اللغة العربية؛ فكيف أكون مدافعا عن الصهيونية (11). وهي الإجابة التي يؤكد مدافعو طه حسين ومريدوه صدقها ومصداقيتها بقرينة دامغة وهي: مشاركة أشهر الأقلام المصرية وغير المصرية المعروفة، في حينه، بالكتابة في هذه المجلة، على اختلاف أطيافهم الفكرية ومشاربهم الأيديولوجية من ليبراليين وعروبيين وحتى إسلاميين؛ من لويس عوض إلى السيد قطب مرورا بالمازني وتوفيق الحكيم وسلامة موسى وحسين فوزي وسهير القلماوي، والقائمة طويلة - باستثناء العقاد والسنهوري - وهي أسماء يتعذر إلحاق تهمة التعاون مع الصهيونية بهم.أما من اتهموه بميوله الفرعونية فلست أرى ما يعيب طه حسين في افتخاره بفرعونيته، فهذا حق مشروع له ولغيره من المصريين؛ ولكن فرعونية طه حسين واعتزازه بها لم تكن يوما، بالنسبة إليه، موقفا سياسيا أو ثقافيا منافيا لإيمانه بثقافته العربية واعتزازه باللغة العربية الفصحى ودورها في تجديد الفكر والثقافة العربيين، فهو من أعلن، من تونس في حوار نادر مع عملاقي الأدب التونسي الحديث محمود المسعدي وعلي البلهوان، عن أسفه من الداعين للكتابة الأدبية بالعامية المصرية؛ متوجسا خشيته جهرا، مما يمكن أن تلحقه كتابة الأدب - قصة ورواية وقصيدة - بالعامية المصرية (أوغير المصرية) من ضرر بل من " الخطر العظيم جدا " (12) بالأدب العربي الحديث وتعطيل تطوره عربيا وعالميا.

لقد أوردت هذه القرينة ردا على من أتخذ من خصوم طه حسين اعتزازه بفرعونيته، حجة على انكفائه واكتفائه بقوميته المصرية وقضاياها السياسية الخاصة، وعزوفه عن الاهتمام بقضايا الشعوب العربية السياسية مشرقا ومغربا. وهي الحجة التي بنى عليها أحد الخصوم تهمة " برودة موقفه " من مطالبة شعوب شمال إفريقيا، وخاصة الشعب الجزائري، استقلالها عن فرنسا - وهذا في الواقع مقصد تحريرنا هذا المقال - وتحبيذه؛ أي طه حسين، بقاء هذه الشعوب تحت الحكم الفرنسي؛ بغية تمدنها، كما زعم هذا الخصم الفكري والسياسي. وهو مجرد استنتاج زائف وبهتان لا يقوى على الصمود، نسجه، في الواقع، خيال الراهب القبطي (**كمال قلبية**) في أطروحة له عن طه حسين؛ معمما حكمه النقدي لموقف طه حسين المنفتح على الحضارة الأوروبية ورؤيتها الكونية والوجودية الجديدة للإنسان، مستنتجا موقفا سياسيا يأباه المنطق والتاريخ قائلا: " لقد كان طه حسين يود من صميم قلبه أن تقوم في مصر حضارة

ورقي كما في أوربة وخاصة فرنسا "، مسترسلا في استنتاجه المغلوط قائلا: إنه "..من أجل فرنسا هاجم طه حسين شعوب شمال إفريقيا الساعية يومها إلى الاستقلال، فوصفها بأنها قبائل ترفض أن تتقدم وتتحضر"(13) . وقد يكفينا في هذا المقام إيراد وصية من وصايا طه حسين لأحد مؤرخي أفكاره، سامح كُريّم، سجلتها سهير القلماوي فيما نصه: "...فقد ضاق ذرعا بتفسير بعض الناس لمواقفهم ومحاولاتهم...تفسير بعض الظواهر دون أن يكون لهم علم حقيقي بكل الملابسات...لذلك تمنى أن تخرج (أي أفكاره) صورة محايدة كل الحيدة ... حتى تكون بين أيدي القراء، قراءة الأجيال القادمة والحاضرة، يفسرها كل منهم حسبما يرى، دون أن يكون الرأي المعاصر لطه حسين تدخلا في تكوين هذا الرأي."(14)

إذن لأنور الجندي ولغيره من خصوم طه حسين الفكريين أن يحدثونا بما شاءوا عن "اغترابه الحضاري " (15)؛ وللعقاد والسنهوري وغيرهما من خصومه السياسيين أن يلفقوا له ما شاءوا أيضا من التهم السياسية عن " علاقته المشبوهة بعائلة آل هراري اليهودية المصرية "؛ وللراهب كمال قليبة أن يحدثنا، بدوره، بما شاء عن إعجاب العميد بمدنية أوروبا وحضارتها وليخبرنا أيضا بما شاء عما كان " يرتضيه طه حسين " لشعوب شمال إفريقيا في هذا المجال؛ ولخصومه الفكريين والسياسيين عندنا في الجزائر أن يكيلوا له ما شاءوا من التهم واللوم عن موقفه من ثورتنا التحريرية. فصدور هذه الأقوال وهذه التأويلات والتخريجات والتهم عن أقلام هؤلاء كلهم لا تكفي لتخليد مواقفهم، أو إثبات صحة تهمهم وتأكيد صدقها التاريخي. فلنا نحن بعض أبناء هذا الجيل، المحايد كل الحيدة كما تمنى طه حسين، آراؤنا وتحليلاتنا وفهمنا لمواقفه السياسية. فقد سجل العميد ـ عكس ما أشاع عنه هؤلاء الخصوم ـ قولا وتدوينا، مواقف سياسية وإنسانية وأخلاقية، شجاعة كل الشجاعة مشرفة كل التشريف، إزاء شعوب شمال إفريقيا عموما وإزاء ثورتنا التحريرية بشكل خاص؛ أجرؤ على القول: إنها مواقف مثقف حرّ مخلص لقضاياه القومية، ولقضايا شعوب المغرب العربي الوطنية، أكثر إخلاصا وتشريفا ـ كما سنبين بالشواهد والمصادر ـ من مواقف بعض المثقفين ـ العرب وغير العرب ـ الذين اشتهروا عندنا بتأييدهم لثورتنا التحريرية، وفي مقدمتهم الفيلسوف والأديب الفرنسي المشهور جان بول سارتر، وهذه مسألة تحتاج إلى وقفة خاصة.

فهاهو المؤرخ والدبلوماسي المغربي المعروف عبد الهادي التازي يدون كتابا كاملا مخصوصا لهذا الموضوع، وَسمُه بـعنوان لافت " **طه حسين في المغرب** "، استهله بشهادة مأثورة، دونها الأديب والناقد الكبير شوقي ضيف، هذا نصها " للأستاذ الكبير الدكتور طه حسين ...موقف مجيد من شعب مراكش المغربي، وملكه محمد الخامس حين اعتدت فرنسا عليهما سنة 1953 ونفت الملك وأسرته إلى كورسيكا ثم إلى مدغشقر، وأخذ شعبه يكافح فرنسا كفاحا عنيفا، واشترك معه الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين في هذا الكفاح بمقالات صحفية ملتهبة، ورد إلى فرنسا وسام **جوقة الشرف** الذي كانت أهدته إليه غضبا للمغاربة الأحرار الثائرين عليها في مراكش ومليكهم. ونجحت الثورة، إذ فرضت على فرنسا إرادتها وأجبرتها أن ترد إلى شعب مراكش سنة 1956 مليكه و**حريته** وسيادته واستقلاله الكامل" (16). ولكي لا نثقل المقال بالشواهد التي ذكرها عبد الهادي التازي، وتكريم المغرب ومليكه عميد الأدب العربي على جميله بالثناء والأوسمة، نحيل القارئ المهتم بالموضوع إلى هذا (الكتاب الوثيقة) المذكور، ففيه ما يقنع ويغني من الحقائق والوثائق التاريخية ويزيد.

وكذلك هو الحال بالنسبة للشعب التونسي الشقيق؛ فقد سبق لطه حسين أن اتخذ مواقف مشرفة في حقه قبل ذلك بعقدين من الزمن، حيث مكن المناضل والزعيم السياسي التونسي **عبد العزيز الثعالبي** ، في

ثلاثينات القرن العشرين، من تعريف شعوب المشرق بقضية الشعب التونسي ونضاله من أجل الحرية والاستقلال؛ فاتحا له، كما أورد الباحث التونسي رشيد القرقوري، منبر مجلة " كوكب الشرق" ذائعة الصيت، ولسان حال حزب الوفد، لنشر فصول متتابعة فيها عن بلاده، وكان ذلك برعاية شخصية من طه حسين وبإلحاح شديد منه. والموقف ذاته اتخذه بصير مصر، فيما بعد، مع الزعيم السياسي التونسي أيضا **الحبيب بورقيبة**، خلال رحلته التوعوية المعروفة إلى بلاد المشرق 1945 - 1949؛ حين دعاه؛ أي طه حسين، ملحا عليه مخاطبة المصريين عن القضية التونسية عبر الإذاعة المصرية (17). وكما فاز طه حسين سنة 1958 من شعب المغرب ومليكه بحفاوة الاستقبال والأوسمة الرسمية الرفيعة - وسام الكفاءة الفكرية الذي استحدث من أجله، وهو أعلى أوسمة المملكة المغربية - عرفانا بصنيعه الجميل وإسهامه الحميد، كذلك حظي العميد قبل ذلك سنة 1957 بنفس حفاوة الاستقبال والعرفان بالجميل من الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة والشعب التونسي ونخبته الفكرية والدينية، وفي طليعتها العلامة محمد الطاهر بن عاشور عميد جامعة الزيتونة ووزير المعارف الأمين الشابي؛ مُسْدينَ له جميعهم (**وسام الاستقلال**). وعرفانا منه بقيمة هذا الوسام وبالتقدير الخاص الذي حظي به قال طه حسين كلمة مؤثرة خلدت زيارته هذه في ذاكرة الشعب التونسي أيما تخليد، هذا نصها: " ...ما أكثر ما دعيت إلى زيارة تونس فأبيت. كرهت أن أزورها وهي خاضعة لغير أهلها. فأما الآن وتونس قد حررت بفضل هذا الجهاد الرائع الذي جاهده أبناؤها....أما الآن وقد أصبحت تونس تملك أمرها كله وتشارك في الحياة الدولية عزيزة كريمة. فقد أصبحت زيارتها حقا عليَّ، وأصبحت واجبا أيضا ".(18) وهي الحقائق التاريخية التي أسهب فيها مؤخرا الأديب والناقد الباحث التونسي ابو القاسم محمد كرو، في كتابه القيم " **طه حسين والمغرب العربي** " (19). وفي هذا الكتاب ما يفيد ويغني أيضا، من المقالات والوثائق النادرة في هذا الموضوع ويزيد؛ وبشكل خاص ما يتعلق منها **بالجزائر**؛ فمع أن الجزائر هي البلد الوحيد من بلدان المغرب العربي التي لم يزرها طه حسين، إلا أنها ، فازت هي وشعبها أكثر بجميل صنيعه، فقد كتب عنها، كما يقول المؤلف محمد كرو: " أروع مقالاته وأكثرها جرأة وحرارة دفاعا عن ثورة شعبها وحقه في الحرية والكرامة "، أكثر مما كتب من مثل هذه المقالات الجريئة عن جارتيها الشقيقتين تونس والمغرب.

وفي هذا المقام أجدني مضطرا للتذكير بشهادات العميد النصية - دون تصرف - في حق شعبنا وثورته التحريرية، مكتفيا بثلاث منها أملاها في ثلاث مناسبات. خلدت شهادتين منها آثار قلم مؤرخنا الكبير، ومراسل جريدة البصائر من القاهرة آنذاك، أبو القاسم سعد الله في مراسلتين له سنة 1956 يقول في أولاها: " وما دامت البصائر لسان القارئ العربي في شمال إفريقيا...بل في الشرق أيضا فمن الشرف لها أن تقدم الدكتور طه حسين الذي ذرت به الشمس للقاصي وللداني.. في مقاله الخطير (**إرادة الشعب**) قال الدكتور بالحرف الواحد: " في أقل من أسبوع عرف العالم أن شعبين عربيين مسلمين قد استطاعا أن يفرضا إرادتهما على دولتين عظيمتين من أقوى دول الأرض قوة وأشدها بأسا.....فرض الشعب المراكشي إرادته على فرنسا فاضطرها اضطرارا إلى أن تعترف باستقلاله وسيادته، وأكرهها إكراها على أن تفاوض السلطان الذي أنزلته عن عرشه منذ عامين ونفته إلى جزيرة نائية...وقدرت أنها ستجعله نكالا للثائرين بها والمتمردين عليها. فلم يغن عنها مكانها الرفيع وصيتها البعيد، وبأسها الشديد وسلطانها الواسع شيئا وإنما مضى الشعب المراكشي في ثورته وأضاف عنفا إلى عنف حتى اضطرها إلى أن تترضى السلطان المخلوع... ثم الرجوع إلى وطنه وعرشه موفورا منصورا.... وهي الآن تعلن إليه أن وطنه قد أصبح مستقلا يستمتع بسيادته ويدبر أمره بنفسه...أرادت أن يكون خلع السلطان ونفيه نكالا ودرسا قاسيا عرفت كيف تنتفع به **في تونس** وكيف تنتفع به **في مراكش**، وستعرف غدا وبعد غد **من غير**

شك كيف تنتفع به **في الجزائر** أيضا. ذلك أن خلع السلطان ونفيه، والبطش بالشعب المراكشي لم يُخِف أحدا في شمال إفريقيا كله بل نشر فيها الثورة وأضاف إلى لهيبها لهيبا . فثار التونسيون حتى ظفروا ببعض استقلالهم، وهم يفاوضون الآن ليضيفوا ظفرا إلى ظفر ويوسعوا هذا الاستقلال الذي نزلت لهم فرنسا عنه منذ حين. ويجعلوه استقلالا محققا لا كلاما يقال. وثار المراكشيون حتى استردوا سلطانهم، وانتزعوا استقلالهم انتزاعا. **وثار الجزائريون وما أرى أن ثورتهم ستهدأ حتى تعرف فرنسا ما تنكر من حقهم وترد عليهم ما تستأثر به من مصالحهم وتمحو من نفسها هذه الأسطورة السخيفة التي عللت نفسها بها قرنا وبعض قرن حين زعمت أن الجزائر جزء من الوطن الفرنسي** زعمت ذلك لنفسها وأبت أن تعرف لأهل الجزائر حقوق الفرنسيين **فجعلت الجزائر أرضا فرنسية يعمل فيها الملايين من الرّقيق ليخدموا سادتهم من الفرنسيين** وهي الآن تتعلم في مشقة أي مشقة وجهد أي جهد وتضحية بالمال والرجال. **أن الجزائريين كانوا أحرارا وهم يريدون أن يستردوا حريتهم وأن يملكوا بلادهم ويدبروا أمرهم كما يريدون هم لا كما يريد غيرهم من الطارئين."(20)**

أما شهادة نجيب الأزهر والسربون الثانية ، في حق الجزائر وشعبها، فليست تقل هي كذلك في دلالة مضمونها، كما دونه أبو القاسم سعد الله دائما، عن شهادته الأولى، وضوحا وجرأة وشرفا. وهي شهادة رأيت أنها، بالمناسبة، كافية كما سيتضح، للرد على التأويل السيئ الذي روجه البعض للعبارة الواردة في مذكرات الأستاذ أحمد طالب الإبراهيمي؛ في إحدى الصحف الوطنية. فليتمعن القارئ الكريم، إذن - قبل تعليقي على هذه العبارة المستشهد بها؛ المحرّفة التوظيف - فيما قاله حرفيا العميد، مخاطبا هيئة الأمم في موجز مقال وسَمَهُ بـ (**اللاّعبون بالنفوس)**. "... لقد اجتمعت هيئة الأمم في آخر الصيف الماضي، وعُرضت عليها فيما عرض عليها من المشكلات مشكلة الجزائر وما يّصب على أهلها من البأس وما يبرر لهم من الكيد وما يسفك من دمائهم ويزهق من نفوسهم لأنهم يطالبون بأن يكونوا أحرارا وبأن يأمنوا من الخوف ويّعصموا من البغي ويّظفروا بالكرامة التي قرّر موثق هيئة الأمم أنها حق للإنسان من حيث هو إنسان، لا من حيث أنه ينتمي إلى هذه الدولة أو تلك ويعيش في هذا القطر أو ذاك...." ثم أضاف يقول: " وكانت هذه المشكلة قضية بين شعب ضعيف هو الشعب الجزائري ودولة قوية هي فرنسا وخيل إلى الناس أن هيئة الأمم قد أخذت موقفها مأخذ الجد وأزمعت أن تقيم العدل بين الخصمين دون أن تحفل بأن أحدهما ضعيف والآخر قوي...ولكن الخصم القوي ثار ثائره وفار فائره **وأخذته العزة بالإثم** فاستكبر حتى على القضاء وأبى أن يقف موقف المتهم وأن يدافع عن نفسه أمام خصم ضعيف لا يملك حولا ولا طولا....وعاد إلى باريس غاضبا مغاضبا معتمدا على قوّته معتزّا ببأسه متحديا بما يملك من وسائل البطش والتنكيل وما هي إلا أن تضيق هيئة الأمم بهذه الغضبة ثم تضطرب لها ثم تذعن بما لم يكن بد من الإذعان له...وتخلي بين الجزائريين وبين الموت يتخبطهم من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون وخلت بينهم وبين الظلم يصّب عليهم حين يصبَحّون وحين يمسون ...وعادت فرنسا إلى هيئة الأمم موفورة منصورة قد رفعت رأسها مكابرة ومدّت يدها مصافحة.. ورضيت هيئة الأمم بالعافية وظلت الدماء تجري في الجزائر أنهارا، وجعلنا نقرأ في الصحف الفرنسية نفسها أن مائة من الجزائريين قتلوا في الأيام الأربعة الأولى من الأسبوع الماضي ثم نقرأ في بعض البرقيات أن أكثر من ثلاثمائة من الجزائريين قتلوا في ذلك الأسبوع نفسه" (21)

لا أعتقد أنه توجد شهادة تطلب من العميد، في حق شعبنا في الحرية، أوضح من هتين الشهادتين وأبلغ منهما . فهل يعقل، والحال كذلك، أن يقدّم طه حسين نفسه، وفي وقت مبكّر من عمر الثورة، التحريرية - فيفري ومارس 1956 - شهادته على هذه المجازر الفرنسية المرتكبة ضد الشعب الجزائري الضعيف

الأعزل، واطلاعه بنفسه عليها في **الصحف الفرنسية تحديدا** ، ويكون ضد الثورة؟ وهل يمكن أن تفهم عبارة (ce n' est pas possible) المكرّرة مرتين على مسامع ضيفه، الأستاذ أحمد طالب، بأنها عبارة تفيد النفي؟. إنها " عبارة " لا يمكن أن تفيد، فيما أرى و في كل الاحتمالات، هذا المعنى لسببين رئيسين على الأقل. أولا ليس يعقل حدوث ذلك من ناحية أدبيات الضيافة؛ فليس من أخلاقيات الضيافة المتعارف عليها، في جميع أنحاء الدنيا وثقافاتها الشعبية، أن يعلن المُضيف لضيفه عدم تصديق أقواله جهرا، في مثل هذه المواضيع والأشجان العامة؛ ثانيا فإن منطق اللغة نفسه يأبى هذا التفسير لأنها، بكل بساطة، عبارة نفي (**اندهاش واستغراب**) تفيد التأكيد، عكس ما شاع في أفهام البعض لهذه العبارة.

أما الشهادة الثالثة فقد رأيت توظيفها لغرضين اثنين، كما سنرى، يتمثل الغرض الأول في إثراء هذه المرافعة بشهادات العميد النصية ذاتها وفي مختلف المناسبات؛ وأما الغرض الثاني فقد أردناه ردا على صاحب مصدر هذا الخطأ التاريخي حول موقف طه حسين من ثورتنا التحريرية. ذلك أن مصدر هذا الخطأ ليس جزائريا وإنما منطلقه أستاذ أردني مرّ، في سبعينيات القرن الماضي، أستاذا مشاركا بجامعة الجزائر، هو الأستاذ سمير بدران قطامي، كتب مقالا عن طه حسين ـ وهو، ويا للمفارقة والعجب !، من المتخصّصين فيه ـ نُشر في مجلة " الثقافة " الجزائرية ، يزعم فيه، جهلا أو تجاهلا، أن طه حسين ظل إلى آخر أيام حياته متجاهلا الثورة الجزائرية قائلا ما نصه: " ... **فحتى تلك الثورة التي هزت المشرق والمغرب وتجاوبت معها أوروبا والعالم....حتى تلك الثورة لم تظفر منه بموقف** "(22). وهي العبارة التي جعلت الكثير من الكتاب الجزائريين يبنون عليها، منذ ذلك الوقت، حكايات وينسجون من فكرتها الخاطئة خرافات. وأنا هنا لن ألوم هذا الأستاذ عن عدم اطلاعه على ما كتبه أستاذه طه حسين في منابر ثورتنا التحريرية الإعلامية، فهو غير مطالب أكاديميا بذلك، ولكن من غير المقبول علميا وأكاديميا أن يتجاهل هذا المختص في فكر طه حسين وأدبه ندوة كاملة نظمتها أشهر الجمعيات الأدبية في مصر عن الثورة الجزائرية سنة 1957، وسَمَتْها بعنوان مؤثر " **مع الجزائر** " وبغلاف مسجى بالعلم الجزائري، كان أبرز المشاركين فيها وصاحب أول محاضرة فيها وأعمقها تأثيرا في النفوس **طه حسين** نفسه بمعية أشهر الأقلام الأدبية والفكرية العربية المتواجدة في حينه بمصر ـ من لويس عوض إلى الشيخ البشير الإبراهيمي ومن يوسف السباعي إلى أنور عبد الملك وسلامة موسى مرورا بيوسف إدريس ورجاء النقاش ومحمود أمين العالم والقائمة طويلة. وتفاديا للإطالة رأيت أن أقدم مقتطفا مختصرا من مداخلة العميد؛ فهي مداخلة طويلة ومحاكمة إنسانية وأخلاقية نادرة للإستعمار الاستيطاني الفرنسي للجزائر، يتعذر الإسهاب في عرض تفاصيلها في هذا المقام. يقول في أحد مقاطعها "...وقد طغى الشعب القوي على الشعب الضعيف فغلا في الطغيان وتجاوز أقصى حدود الظلم والبغي . وهب الشعب الأعزل الضعيف يطالب بحقه في الحياة، وفي الحياة الكريمة **الحرة** فلم يأبه له أحد....ليست قضية الجزائر هي القضية التي يغلو فيها الطغيان حتى يعدو كل حد ويقف فيها المغلوبون يذودون عن حقهم في الحياة والكرامة. ولكنها شيء آخر أعظم من هذا خطرا وأعمق من هذا أثرا في حياة الإنسانية المعاصرة. وهو هذا الضمير الإنساني الذي أصابه التبدد والجمود حتى أصبح لا يغضب لحق ولا يثور لبغي ولا لعدوان ولا يؤذيه أن يرى في كل يوم بل في كل لحظة من لحظات الليل والنهار دماء غزيرة تسفك وحرمات كثيرة تنتهك وكرامات تهدر وعذابا شنيعا مفزعا يصب على الأبرياء من الرجال والنساء ومن الشيوخ الفانين والصبية القاصرين "(23).

وعن هذا الخطأ التاريخي فإن الأمر يعود، في ما أرى، لسببين اثنين؛ أولهما معرفي وثانيهما أخلاقي ـ يتمثل الأول منهما في ما أفشاه هذا الأستاذ الأردني، جهلا وافتراء، في أحد منابرنا الثقافية دون مراقبة

وتفطن من القائمين على مجلة " الثقافة " إلى هذه المعلومة الخاطئة. أما ثاني هذين السببين؛ أي الأخلاقي، فلن يخرج، في ما أرى، عما اعتدنا عليه نحن الجزائريين، للأسف الشديد، من تنكر - مقصود وغير مقصود - لتضحيات أصدقاء ومحبي الثورة الجزائرية وجميل صنيعهم للشعب الجزائري بشكل عام، والذين كتبوا عنها بالقلم بشكل خاص، وكان في طليعتهم الأديب والمفكر الكبير طه حسين. أما عن مسؤوليتنا نحن عن تجاهل إسهام طه حسين، المعنوي والإنساني، تجاه ثورتنا التحريرية. فإن اللوم لا يوجه، في رأيي، إلى هذا الأستاذ الأردني فحسب، وإنما اللوم كل اللوم، والعتاب كل العتاب موجه للكاتب الجزائري الذي يلوم طه حسين عن تجاهله لثورته التحريرية وهو لم يطلع على ما كَتبه خيرا وعدلا وحقا، عن ثورة شعبه في جرائد ومنابر هذه الثورة الإعلامية نفسها.

أخيرا أقول مخاطبا روحك الكريمة: مع أنك كنت مدركا، كما صرّحتَ لزوجك سوزان، أننا لا نحيا لنكون سعداء؛ خاصة عندما يكون شأن المرء شأن أمثالك يدرك أنه لا وجود لهذه السعادة على الأرض، وإنما تعيش لأداء ما طلب منكم، كما اعترفت هي نفسها بذلك، وأنك بما كنت تمتاز به أساسا من زهد النفوس العظيمة فإنك لم تكن، بشهادتها أيضا، تبحث عن هذه السعادة الشخصية أصلا. لقد كرمك الأشقاء التونسيون ومنحوك سنة 1957 " **وسام الاستقلال** " وكذلك فعل الأشقاء المغاربة فاستحدثوا لك أسمى وسام المملكة سنة 1958، " **وسام الاستحقاق الفكري** ". وقد أهدت لك الجزائر، عبر مؤسستها الجامعية الأولى والوحيدة في مرحلة استقلالها - جامعة الجزائر - " **الدكتوراه الفخرية** " سنة 1964. وأملي أن يكون ذلك قد تم جزاء حميد صنعك للشعب الجزائري وحقه في **الحرية** والحياة الكريمة؛ أما وإن كان ذلك التكريم تقديرا لعطائك الأدبي والفكري العظيم، فأملي أن يكون هذا المقال مثقال ذرة جميلا يسدى لروحك الطاهرة بعد أن فارقتنا إلى بارئها راضية مرضية على حسن صنيعها لنا وللشعوب المستضعفة وللإنسانية جمعاء

أحسن بشـــــاني

الهوامش

(1) طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر : مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر. 1938 ص 2

(2) المصدر والمعطيات نفسها

(3) هذه هي رسالة خير الدين التونسي الأساس التي أراد تبليغها إلى وجهاء قومه من رجال الدين والسياسة في عهده. راجع ، خير الدين التونسي " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك "

(4) هذا هو جوهر الخلاف بين الشيخ محمد عبده وأستاذه جمال الدين الأفغاني . وهي مسألة يؤكدها معظم مؤرخي حركات الإصلاح الدين في عصر النهضة. نذكر على سبيل المثال محمد عمارة. راجع الأعمال الكاملة للشيخ الإمام محمد عبده. الجزء الأول

(5) راجع ابراهيم عبد العزيز، رسائل طه حسين: دار ميريت للنشر والمعلومات. القاهرة2000. ص 7

(6) المرجع نفسه: ص 9

(7) راجع محمد حسن الزيات، ما بعد الأيام: مؤسسة دار الهلال . الطبعة الأولى دون تاريخ. ص 17

(8) راجع جهاد فاضل، أدباء عرب معاصرون: دار الشروق 2000

(9) المرجع نفسه . ص 9

(10) المرجع نفسه . ص 11 وص 25

(11) المرجع نفسه . ص 27

(12) أبو القاسم محمد كرّو، طه حسين والمغرب العربي: مؤسسة بن عبد الله للنشر والتوزيع - تونس 2001 . ص 30

(13) راجع جهاد فاضل، المرجع السابق . ص 19

(14) راج مقدمة كتاب سامح كُريّم، معارك طه حسين الأدبية والفكرية. دار القلم - بيروت . دون تاريخ ص 7

(15) وقد لخص أنور الجندي موقفه هذا في عبارة مشهورة قائلا: " إنه عندما ركب البحر - أي طه حسين - إلى أوربا ألقى عمامته في البحر على مشهد من مودعيه...." . راجع ذلك في جهاد فاضل : المرجع السابق ص 19

(16) راجع عبد الهادي التازي، طه حسين في المغرب:مطبوعت مجمع اللغة العربية - القاهرة دون تاريخ .ص (أ) من المقدمة

(17) راجع أطروحة رشيد القرقوري، الفكر السياسي عند طه حسين: مطبوعات جامعة تونس 1989 - 1990 ص 329

(18) راجع أبو القاسم محمد كرّو، المرجع السابق . ص 35

(19) المرجع والمعطيات نفسها
(20) راجع مجلة " البصائر " الجزائرية: عدد 360 - الموافق لـ 20 مارس 1956 .
(21) راجع " البصائر " الجزائرية : عدد 354 - الموافق لـ 17 فيفري 1956 .
(22) راجع مجلة " الثقافة " الجزائرية : عدد 18 . سنة 1975 . ص 13
(23) راجع محاضرة طه حسين " قضية الجزائر " . ندوة جمعية الأدباء المنشورة بعنوان " مع الجزائر " القاهرة 1957 . دار الهنا للطباعة والنشر . ص 5 و ص 6 .

قائمة المصادر والمراجع

- طه حسين:
  - " مستقبل الثقافة في مصر": مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر. 1938
  - " قضية الجزائر" - ندوة جمعية الأدباء (مع الجزائر) القاهرة 1957 : دار الهنا للطباعة والنشر.
  - " إرادة شعب " : مجلة " البصائر" الجزائرية : عدد 360 . مارس 1956
  - " المتلاعبون بالنفوس " : مجلة " البصائر " الجزائرية : عدد 354 . فيفري 1956
- سوزان طه حسين، كتا " معك " . دون تاريخ
- ابراهيم عبد العزيز، " رسائل طه حسين " : دار ميريت للنشر والمعلومات . القاهرة 2000
- أبو القاسم محمد كرو، " طه حسين والمغرب العربي " : مؤسسة بن عبد الله للنشر والتوزيع - 2001
- جهاد فاضل، " أدباء عرب معاصرون " : دار الشروق . 2000
- رشيد القرقور، " الفكر السياسي عند طه حسين " : منشورات جامعة تونس - 1989 - 1990
- سامح كُريّم، " معارك طه حسين الأدبية والفكرية ": دار القلم. بيروت . دون تاريخ
- مجلة " الثقافة " الجزائرية،
- محمد حسن الزيات، " مابعد الأيام" : مؤسسة دار الهلال. الطبعة الأولى دون تاريخ
- عبد الهادي التازي، " طه حسين في المغرب " : مطبوعات مجمع اللغة العربية . القاهرة . دون تاريخ